شفيق جبري في رحلته إلى أرض السحر

أ. د. أحمد حيدوش *

توطئة :

تدور هذه الدراسة حول رحلة شفيق جبري إلى أميركا سنة 1953 والتي سجل من خلالها كل ما جال في ذهنه من خواطر وأفكار نشرها فيما بعد في كتاب تحت عنوان « أرض السحر » وذلك سنة 1962.

وتطمح هذه الدراسة إلى الكشف عن مكنونات هذه الرحلة وكنوزها عند هذا الشاعر الكاتب المفكر، لأنه في حدود علمي لم يتم تناولها بعد في النقد الأدبي العربي في إطار الرحلة في الأدب العربي الحديث أو في إطار الأدب الرحلي بصورة عامة، لربطها بالسياق العام الذي ظهرت فيه.

إن « أرض السحر » تعد تجربة فريدة في الأدب العربي الحديث، فهي تتميز بكونها اقتحام جريء لعالم الآخر « أميركا »، وفيها نقف على عوالم تدخلنا إلى هذا العالم السحري من جهة وإلى عالم الكاتب النفسي والفكري من جهة أخرى، وهذه العوالم هي :

أولا : عالم العلم والمعرفة وفضاؤه الجامعات الأميركية.

ثانيا : عالم الطبيعة الأميركية الخلابة المتميزة.

* أستاذ ومدير المركز الجامعي أكلي محند أولحاج، البويرة.

ثالثا : عالم المدينة بوصفها أهم المعالم الحضارية التي تكشف عن خصوصية الإنسان هناك.

رابعا : عالم الكاتب الداخلي والخارجي.

فمن مطار دمشق حيث تبدأ الرحلة بالطائرة، مرورا بمطار بيروت، ومطار روما، ومطار باريس، ومطار نيويورك، وصولا إلى محطة القطار حيث تستمر الرحلة إلى الفندق الذي سيقيم فيه، ثم قاعة المحاضرات حيث تدور أشغال مؤتمر الثقافة الإسلامية الذي دعي إليه، وما قام به من جولات بعد هذا المؤتمر، نكتشف هذه العوالم بأسلوب سحري يأسرنا على امتداد صفحات الكتاب ويقدم لنا من اللذة والفائدة الشيء الكثير، حيث تبدو الرحلة عنده وكأنها عبارة عن مجموعة من الصور واللوحات المتلاحقة، صور تلتقطها عدسته ويعرضها علينا عرضا سريعا أحيانا أو يعرضها عرضا بطيئا في أحايين أخرى، ولوحات يرسمها بقلمه ويضفي عليها ألوانا سحرية، ومن خلال هذه الصور واللوحات المطعمة ببعض آرائه وأفكاره ومواقفه نقف على بعض مكونات هذه الرحلة.

1. بسط الرحلة :

ورد في تصدير الكتاب ما يلي :

« كتب لي أن ارحل إلى أميركة رحلتين : الأولى سنة 1953 والثانية سنة 1956❖، وقد جلت في مناكب أرضها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، فنعمت بكثير من مشاهد طبيعتها وأنست بكثير من جامعاتها ووقفت على بعض خصائص الأميركان في آفاق تفكيرهم واجتماعهم وعملهم »[1].

نلاحظ في هذا البسط ما يلي :

1 ـ استهلال الكتاب بعبارة « كتب لي » إنه إنسان مؤمن بأن كل شيء

❖ جاء في هامش ص 223 تصحيح لتاريخ الرحلة الثانية كما يلي : « ورد سهوا في كلمة التصدير أن الرحلة الثانية كانت سنة 1956 والصحيح، أنها كانت سنة 1955 ».

(1) شفيق جبري، أرض السحر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ط1، دمشق 1962، ص 05.

مقدر ومكتوب.

2 ـ الاستمتاع بمشاهد الطبيعة.

3 ـ اكتشاف معالم الجامعات الأمريكية.

4 ـ خصائص الأمريكان من تفكيرهم واجتماعهم وعملهم.

2. في دلالة العنوان :

إذا كان العنوان علامة نصية دالة عليه، فان « أرض السحر » عبارة عن علامة أطلق من خلالها الجزء على الكل، فقد وضعه عنوانا فرعيا وصف من خلاله منطقة « نيو مكسيكو » التي لم يجد لها وصفا أصدق من هذا الوصف : « إذا فتشت عن وصف لهذه الجنة التي طفت بها أكثر النهار فلا أجد أبلغ من هذا الوصف (. ..) أرض السحر! ولذلك سميت هذه الرحلة : أرض السحر »[1].

وهي جبال عالية يغطيها الأرز الأخضر، وأودية يغمر الثلج أكثرها، جبال وأودية خضر يذهب إليها الأميركان في الصيف وقد نفرت عنهم أسود الجبال ودببها لأنها تبعد عن الإنسان إلا إذا ضايقها[2].

3. مدة الرحلة :

يشير الكاتب في نهاية الكتاب إلى أنه « لم يحضر عيد الميلاد، فقد غادر أميركة قبل هذا العيد بعشرين يوما »[3] ومعنى هذا، أن الرحلة كانت نهايتها يوم الجمعة 11 ديسمبر 1953، تاريخ العودة إلى دمشق، ، بيد أنه يشير في موضع آخر أنه غادر نيويورك في خمسة أو ستة كانون الثاني 1953 ولم يسجل شيئا أثناء رحلة العودة.

أما رحلة الذهاب فكانت بدايتها يوم الأربعاء 20 سبتمبر (أيلول) 1953. ومعنى ذلك أن الرحلة دامت ثلاثة أشهر وتسعة أيام، أو ثلاثة أشهر وثلاثة أيام.

(1) أرض السحر، ص 134.
(2) نفسه، ص 134.
(3) نفسه، ص 212.

4. فكرة الرحلة وهدفها :

يبدأ كتاب «أرض السحر»، بقوله : «زارني في كلية الآداب في يوم من أيام الصيف سنة 1953 الدكتور فيليب حتي رئيس قسم لغات الشرق وآدابه في جامعة «برنستون» والسيد «دونالد سنوك» الملحق الثقافي في سفارة أميركة في الشرق وسألاني رأيي في رحلة إلى الولايات المتحدة الأميركية لحضور مؤتمر الثقافة الإسلامية في جامعة «برنستون» على أن أقضي تسعين يوما في أميركة أجول خلالها في مختلف آفاقها، ثم بسطا لي فكرة الرحلة، فإن حكومة الولايات المتحدة قد أحبت أن تدعو طائفة من رجالات الشرق إلى زيارة بلادها حيث يتعرفون إلى من يهمهم أمرهم من أهلها ويتناقشون في الشؤون التي تعنيهم»[1].

من هذا المنطلق، فإن الرحلة علمية، تهدف من جهة إلى حضور مؤتمر علمي موضوعه الثقافة الإسلامية يتدارسه مجموعة من الباحثين من الشرق والغرب في جامعة «برنستون»، ثم إنها سياحية من جهة أخرى لأنها غير مقصورة على أيام الندوة، وإنما تستغرق مدة من الزمن بعد انتهاء المؤتمر، تعطى فيها الفرصة للمشاركين لاكتشاف أميركة حسب رغبة كل واحد منهم.

5. الطائرة ورحلة المخاوف والمتاعب :

تبدأ رحلة شفيق جبري بإطلاع القارئ على حادثة وقعت له في مكتب القنصل الأميركي في دمشق والذي جاءه في المطار بأدبه ورقته معتذرا، دون أن يكشف عن هذا الأمر الذي وقع له في مكتب القنصل، ولا شك في أن الأمر لم يكن هينا مادام الملحق الثقافي للسفارة قد انتقل للمطار للاعتذار.

المهم أن الطائرة أقلعت من مطار دمشق لتحط بمطار بيروت بعد نصف ساعة لينحدر منها الركاب وليدخلوا المقصف ويدخل هو معهم ولكنه كان شديد التحفظ خوفا من أن تجري الطائرة ويبقى هو في

(1) أرض السحر، ص 07.

المطار[1].

طارت الطائرة من بيروت إلى روما، ورغم المناظر الطبيعية الجميلة التي كانت تتراءى له من الطائرة، إلا أنه لم يحس بها، إذ ملأه إحساس بأن اقترابه من هذه المدينة هواقتراب من شؤم يوم الأربعاء : « قربنا من روما فاختلفت المناظر ورأيت مدخلا فتانا بطبيعته وبساتينه، قربنا من رومة ولكن قربت من الشؤم، شؤم يوم الأربعاء» نفسه، ص 11. (6). ويبدو أن مطار روما كان أول محطة في رحلة الشؤم في سفر الأربعاء.

توقفت الطائرة بأرض مطار روما، لينزل الركاب إلى المقصف في انتظار مواصلة الرحلة، ولكنه كره الإنتظار فنزل ثانية إلى باب الخروج من القاعة ليفاجئه رجل وهو يصيح : « أنت! لقد ناديناك باسمك مرات، إن الطائرة ذهبت»[2].

استسلم الرحالة للأمر الواقع مدة ليهتدي بعدها إلى ضرورة الخروج من المطار للمبيت في المدينة ليلة، بيد أن الشرطي منعه من الخروج لأن جواز سفره ليس فيه إشارة من قنصل إيطاليا في دمشق، فمكث في المطار أربع ساعات يبحث عن مخرج رفقة صديق تعرف إليه هناك، وأخيرا، أوعز أحد الموظفين إلى الشرطة بالسماح له بدخول روما، فدخلها بعد عذاب أربع ساعات كما يقول[3]. ليستأنف الرحلة في اليوم التالي على متن طائرة إلى مطار باريس وتتكرر تجربة مطار روما ليعللها بأنها من عواقب السفر يوم الأربعاء، فيقضي أربع ساعات أخرى في محاولة منه الخروج من المطار قصد زيارة المدينة : « وصلنا إلى باريز في العصر(. ..) حاولت دخول باريز، فمنعني الشرطي لأن جواز سفري خال من إشارة قنصل فرنسة في دمشق فظل « بتي » يعمل أربع ساعات حتى استطاع أن يمهد لي السبيل إلى دخول باريز »[4].

(1) نفسه، ص 09، 10.
(2) أرض السحر، ص 11.
(3) نفسه، ص 12.
(4) نفسه، ص 12.

غير أن هذه المحطة ـ ورغم ما لاقاه فيها من متاعب لا تختلف عن متاعبه في روما ـ تعد بداية التحول الرحلي في الاتجاه الإيجابي، أو هي بداية نهاية الكابوس :

« أحمد الله على أني استطعت هذه المرة أن أرجع إلى الطائرة من دون قصة من القصص »[1].

ههنا، إذن، يبدأ التحول، ويبدأ معه الالتفات إلى الوطن، ومن ثم تبدأ رحلة المقابلة بين عالمين، عالم الشاعر والعالم الذي حل به : « لقد شهدت وأنا في مثل هذا القلق والحذر أن العالم الذي أنا فيه يختلف عن باريز وعن رومة »[2].

كان همه الوحيد في باريز التي دخلها ليلا أن يستعيد مكانه في الطائرة ليصل إلى نيويورك. ولم تحرك فيه مدينة الجن والملائكة ساكنا على الرغم من سابق معرفته لها ولمظاهر عالم اللهو والمرح والفتنة التي تميزها. وبعد ثلاثة أيام قضاها بها، غادر صوب نيويورك، فكانت آخر محطة من شؤم الأربعاء أن اكتشف أن أمتعته لم ترافقه في الطائرة التي نقلته من باريس وإنما أرسلت في طائرة ثانية وصلت بعد رحلة الطائرة التي سافر فيها.

وأخيرا، وفي مطار نيويورك، ودع الرحالة كل المتاعب، وهي متاعب مرتبطة أساسا بالطائرة، ولها دوافع نفسية دفينة تعود إلى مرحلة الطفولة، وقد كشف عنها من خلال مجموعة من المواقف، وتتمثل في :

1. الرحلة بين القبول والرفض :

يعلق على هذه الرحلة عندما عرضت عليه بقوله : « لقد رضيت بهذه الرحلة دون أن أبالي بها كثيرا لأني على قدر رغبتي في السفر قبل خمس وعشرين سنة أصبحت رغبتي في الاستقرار والهرب من المتاعب، فمن عشرين سنة، أي من بعد رحلتي إلى أوربه والحجاز، ونجد، لم ارحل رحلة

(1) نفسه، ص 14.
(2) أرض السحر، ص 14.

فيها تعب»[1].

2. تلاشي الرغبة في السفر :

بدأت الرغبة في السفر تخف تدريجيا إلى أن وصلت إلى نوع من التلاشي : «خفت في نفسي الرغبة في هذا السفر ولم اعد اهتم به»[2].

3. التردد في قبول السفر :

لم تعاوده الرغبة في قبول السفر إلا بعد الإثارة، فقد راح ينظر إلى الصور فوقعت عينه على بقعة من بقاع أميركة على المحيط الهادي، وعلى ساحل هذا المحيط نخيل ممتد ورجال من الهنود فعاودته الرغبة : «لقد كان لهذه الصورة أثر في نفسي، فقد عادت إلي الرغبة في السفر وخرجت من الحيرة التي كنت فيها»[3].

4. الخوف من السفر بالطائرة :

يكشف في هذه الرحلة عن مخاوفه من السفر بالطائرة، وهي مخاوف تعود إلى مرحلة الطفولة : «لما أبلغني الملحق الثقافي أن سفري سيكون يوم الأربعاء قلقت بعض القلق ورجعت إلى أوهام الطفولة، فإن السفر بالطائرة من دمشق إلى نيويورك غير هين علي»[4].

يؤكد الكاتب أنه لم يسافر قط في كل رحلاته السابقة إلى أوروبا والبلاد العربية بالطائرة، وإنها المرة الأولى التي ينوي السفر فيها جوا على الرغم من العهد الذي قطعه على نفسه بأنه لن يسافر بالطائرة أبدا : «هذه أول مرة أسافر فيها بالطائرة، فقد كنت شديد الحذر من مثل هذا السفر وكنت أقول لا يمكن أن أركب الطائرة في حياتي»[5].

(1) نفسه، ص 07.
(2) نفسه، ص 07، 08.
(3) أرض السحر، ص 08.
(4) نفسه، ص 09.
(5) نفسه، ص 09.

5. استحضار ذكرى من ذكريات مخاوف الطفولة :

كان يوم الأربعاء يوم شؤم بالنسبة إليه، فقد كانت العائلة وهو صغير تتطير منه، ورحلته تبدأ يوم الأربعاء، وهذا مبرر كاف لتصعيد المخاوف لديه : « لما كنت طفلا، كنت اسمع في الدار التي نشأت فيها أن جدي ـ رحمه الله ـ يجد شؤما في السفر يوم الأربعاء، وقد رسخ هذا المعتقد في ذهني حتى كبرت وترعرعت »[1].

ويؤكد أن هذا الخوف بقي منه شيء كثير في نفسه، وإن كان لم يحفل به كثيرا، إلا أنه عاوده عندما عرف أنه سيسافر يوم الأربعاء، وهو مبرر كاف لجعله يصرف النظر عن السفر : « بقي في أعماق نفسي قليل من خوف السفر يوم الأربعاء (.. .) غير أن هذا الخوف لم احفل به كثيرا »[2].

6. تبديد المخاوف بترديد الكلام :

يخبرنا جبري عن كيفية زوال مخاوفه من السفر بالطائرة، ويبدو هنا وكأنه عالم نفس يحدثنا عن علاج هذه المخاوف بطريقة الكلام وترديده : « كنت (.. .) أسامر جماعة من أصدقائي ركب أكثرهم الطائرة(.. .) ولكثرة ما سمعت (.. .) نزع عني خوف الطائرات وهذا يدل على ما للكلام وترديده من الأثر في بعض الأحوال »[3].

7. نشأة الأوهام وتبريرها :

ثم يحدثنا عن الأوهام التي نشأت لديه عندما أقلعت الطائرة من مطار دمشق، فيما كان ينظر إلى الأرض من تحتها وهو يرى خطوطا خضراء، فظن أن هذه الخطوط حدود توضح لها سيرها، ليدرك بعد ذلك أن هذه الخطوط الخضراء ما هي إلا بساتين واقعة على ضفتي بردى، ليبرر بعد ذلك نشأة هذا الوهم : « هذا الوهم نشأ عن أن هذه هي أول مرة أسافر فيها بالطائرة »[4].

(1) نفسه، ص 09.
(2) أرض السحر، ص 09.
(3) نفسه، ص 09، 10.
(4) نفسه، ص 10.

والواقع أن هذه الأوهـام كـثيرا مـا صـنعت لديـه صـورا ذهنيـة خياليـة راسخة عن العالم بددتها هذه الرحلة بعد معايشته الواقع، مـن ذلـك : تصـوره الخيالي لمدينتي هوليود[1] ونيويورك[2] وهي صـورة صـنعتها أحـلام اليقظـة. فقد تصور المدينة الأولى على النحو التالي : « كنت أتصـور المحـيط الهـادي، وأتصـور جانبـا مـن سـاحله فـرش برمـل أبـيض نـاعم كأنـه حريـر أملـس والممثلات تمتد على هذا الرمل في النهار معرضـة أجسـامها اللينـة للشـمس، هذا كل ما كان يخطر على بالي في» هوليود « ولكني لم أدرك شيئا من هـذه الأحلام، في حين أن الواقع يقول إنها : ضـاحية كلـها فـن، شـوارعها عريضـة ودورها رائعة، وحدائقها باسمة، تحيط بها الجبال من كل طرف مـن أطرافهـا، و القصور منثورة على هذه الجبال، فالتناسـق بـين الفـن وبـين الضـاحية الـتي يمثل فيها الفن متكامل من جميع الوجوه[3]. فـلا الرمـل فيهـا كـالحرير، ولا الأجسام الأنثوية الناعمة ممتدة عليه.

أما مدينة نيويورك، فقد تصورها على النحو التالي : « أبنيتها تصـل إلى السماء وإني إذا أردت أن أرى آخر طاق من طيقان هذه البنايـة، عجـزت عـن ذلك مهما يبلغ من رفـع رأسـي إليهـا، وكنـت أظـن أن شـوارعها بلغـت مـن العظمة مبلغا لا أستطيع وصفه، وما علي إذا قلت إني كنـت أتـوهم أن ناسـها لا يشبهون غير ناس، وأن أبنيتها لا تماثل غير شوارع »[4]. ويـبرر هـذا الـوهم عن المدينـة بأنـه يعـبر عـن حالـة نفسـية في أول كـل زيـارة للمـدن الكـبيرة، كمدينة باريز ونيويورك. وهـذه الحالـة لا تلبـث أن تـزول فيعـود الـذهن إلى طبيعته ليرى الأشياء على حقائق صورها، كأن حجابا يلقى علـى هـذا الـذهن ثم يرفع الحجاب عنه، فيحكم على الأمور حسب مقاديرها »[5].

(1) نفسه، ص 105، 106.
(2) نفسه، ص 202.
(3) أرض السحر، 106، 107.
(4) نفسه، ص 202.
(5) نفسه، ص 17.

8 . القطار ورحلة الفرجة من نيويورك إلى برنستون :

إذا كانت رحلة جبري بالطائرة من دمشق إلى نيويورك يمكن أن نطلق عليها رحلة المتاعب والمخاوف والهواجس والأوهام، فإن نهايتها كانت بخروجه من مطار نيويورك لتبدأ رحلة القطار، الرحلة على أديم الأرض، ففي القطار لم يعد يهمه شيء بقدر ما تهمه الفرجة : « لا يهمني شيء في القطار مقدار ما تهمني الفرجة »(1).

كانت على جانبي الطريق بين نيويورك وبرنستون مشاهد طبيعية خلابة : أشجار وسهول كثيرة، ولكن الذي استوقف نظره ورصده بعدسته هو « قطعان السيارات » بدلا من قطعان « الإبل والغنم » وهو أول مظهر من مظاهر الغنى في أميركة يسجله ليشير به إلى التعارض القائم بين عالمه الأصلي عالم الشرق العربي، والعالم الذي هو فيه الآن، وهي إشارة واضحة إلى التعارض بين العالمين.

9 . الوصول إلى الفندق وبداية تشكل الصورة عن المجتمع الأميركي :

عند وصوله إلى الفندق، يستقبله رئيس المؤتمر، وهنا ترصد عدسته سلوك الرجل الحضاري المتميز بشيخوخته المرحة التي لا يفارقها ابتسام الثغر والتي لا يكاد الشباب يتولى عنها، ثم ترصد عدسته جمال الفندق الذي سيقيم فيه والمتربع على مروج خضراء وبحيرات مصنوعة وطبيعته الهادئة، والذي لا يشبه الفنادق الفخمة في المدن بل هو أشبه بدار الأرياف. و قادته هذه المحطة إلى استحضار بعض العناصر والأجزاء العالقة بذهنه ليرسم لوحة أولية عن هذه البلاد التي أطلق عليها اسم بلاد الغرائب، وذلك على النحو التالي : « الولايات المتحدة مجموعة غريبة من الأشكال، أجسام طويلة كأن أصحابها جبابرة، وأجسام قصيرة مختلفة، فلا تكاد تحس فيها بأمة من أصل واحد(. ..) ترى من حين لآخر شيخوخات، وكأنها شباب نضير، وسيارات تسوقها العجائز، فكأن الناس في أميركة لا يعرفون الموت، فهم لا يذكرونه ولا يخطر لهم على بال، فلم يخلقوا للتفكير في الحزن

(1) نفسه، ص 17.

والكآبة في كل ساعة، فلا تسمع في كل دقيقة الدنيا زوال! الدنيا زوال! ثم تجد الإفراط في حرية النساء، فتأخذ عينك في الطريق نساء عاريات السيقان من الحر، ولا تجد إنسانا يحملق لينظر إليهن »[1].

وهذه الصورة يؤكدها فيما بعد من خلال الصورة التي رسمها لمدينة نيويورك[2]. إنه يحدد هنا ملامح هذا المجتمع، فهو شعب غير متجانس، وهو مجتمع النشاط والحيوية بشبابه وشيوخه، وهو مجتمع يقدس الحياة بل يعبدها، فهي الهدف الأسمى للإنسان الأمريكي والمرأة فيه حرة إلى أقصى حدود الحرية.

10. قاعة المؤتمر وعالم المعرفة :

أ. صورة المثقف الشرقي :

ليس المهم لديه هنا أن يرصد كل ما قيل في هذه القاعة من محاضرات، وكل ما دار فيها من مناقشات، وإنما المهم عنده أن يدون خواطره أو ما يحس به فيها، كما كان يفعل ذلك من قبل : « إني أدون خواطري وأنا اسمع الأقوال كما كنت أدون خواطري في القطار والسيارة وأنا انظر إلى الطبيعة »[3].

من بين هذه الخواطر ما دونه عن أثر الشرق في هذه القاعة ويعني بهذا الأثر تلك اللغة الشعرية الحماسية التي درج الإنسان الشرقي استعمالها في مخاطباته حتى كاد أن يبتعد عن واقع الحياة، وهي دعوة صريحة إلى العقلانية والابتعاد عن الخيالات والأوهام في حياتنا اليومية، أو هي دعوة إلى اعتماد لغة العقل والمنطق بدل اللجوء إلى لغة العواطف والانفعالات الزائدة عن اللزوم.

(1) أرض السحر، ص 19.
(2) نفسه، ص 205.
(3) أرض السحر، ص 23.

ب. صورة المثقف اليهودي :

لاحظ جبري وجود ثلاثة أساتذة يهود في المؤتمر وهم من الجامعة نفسها التي نظمت المؤتمر، وأستاذين يهوديين آخرين لا ينتميان إلى هذه الجامعة، ارتأى منظمو المؤتمر دعوتهم للاستماع فقط، دون أن يرخص لهم بالتدخل في المناقشات، وكأن اليهودي في هذا المؤتمر لا يحق له أن يتحدث عن الثقافة الإسلامية، وهو موقف يحمل أكثر من دلالة.

جـ. صورة المثقف الأمريكي :

إن أبرز ما علق بذهن الكاتب من خواطر عن الأميركي المثقف :

ـ ميله إلى المرح والتنكيت حتى يخفف عنه عناء الجد : « فكأن النفوس يتعبها الصبر على الجد والتفكير »[1]. وكأن منطق المثقف الأميركي ههنا يتماشى مع منطق الجاحظ.

ـ الإنصاف : بعدما كثر السؤال عن أثر الشيوعية في أدب العرب، وطال الحديث عن ضرورة تبديل الحروف العربية بحروف لاتينية من قبل بعض الأساتذة من الشرق، علق احد الأميركان بقوله إن الأميركان آخر من يجب عليهم الخوض في الكلام عن الحروف العربية وتبديلها بحروف لاتينية لأن لغتهم نفسها بحاجة إلى إصلاح، بل ودعا إلى ضرورة المحافظة على الحرف العربي بالنظر إلى محاسنه، فلا يجوز التفكير في تبديل الكتابة العربية. ويرى جبري في هذا الكلام منتهى الإنصاف.

ـ ميزة الإصغاء واحترام الرأي الآخر :

إن الأميركي مستمع جيد لا يخوض في بعض الأمور الحساسة، يفضل تركها لأهلها من أصحاب الاختصاص، ومن هذه الموضوعات ما يتعلق بالتاريخ الإسلامي وكتابته بأسلوب علمي حين أراد بعض الأساتذة أن يطبقوا أساليب العلم على الدين، وهؤلاء كلهم من الشرق، اقتصر الأميركان على الإصغاء واحترام رأي هؤلاء، وهكذا : « وقف الأميركان وأساتذة الشرق

(1) نفسه، ص 25.

على الآراء المختلفة، وهذه فائدة من فوائد المؤتمر »[1].

وإذا كانت بعض الأفكار قـد مـرت دون أن يوليهـا أحـد الاهتمـام فـإن جبري لم يتركها تمر حين سـجل موقفـه منهـا في مـا دونـه، مـن ذلـك مـثلا تدخل أحد الأميركان البروتستانت ودعوته إلى ضرورة البحـث عـن نصـوص جديدة للقرآن، علـق بقولـه : « القـرآن هـو الصـلة الوحيـدة الـتي تجمـع بـين ملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، هذه الصـلة يريـدون تمزيقهـا، إما بالتفتيش عن نصوص جديدة للقرآن، وإمـا بإخضـاع الإيمـان للمعـادلات الجبرية »[2].

وهكذا، سجل جبري خواطره التي ضمنها الكثير من المواقف حول مـا قدم في موضوع التاريخ والتربيـة، والأدب، والإصـلاح الاجتمـاعي، والشـريعة والعلم والفلسفة فأعطانا صورة عمـا دار في القاعـة مـن نقاشـات حـول هـذه الموضوعات[3]. وهي موضوعات كان يـدور حولهـا جـدل كـبير في مرحلـة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

11. نهاية المؤتمر ورحلة الاكتشاف والمتعة :

أنهى المؤتمر أشغاله، فكان لا بد من ترتيب رحلـة استكشـاف أميركـة حسب رغبة كل ولحد من المشاركين في المؤتمر. وقد عبر جبري عن رغبتـه بقوله : « اتصل بي السيد « روث » وسألني : مـاذا تحـب أن تـرى في أميركـا؟ قلت له : الطبيعة والجامعات قبل كل شيء، قال : المعامل، قلـت : لا، فـأدرك ذوقـي ووضـع لـي جـدول السـفر في أميركـة كلـها، في شـرقها وغربهـا، في شمالها وجنوبها »[4].

(1) أرض السحر، ص 28.
(2) نفسه، ص 29.
(3) أنظر الصفحات، من 26 إلى 38.
(4) أرض السحر، ص 50، 51.

أ ـ الجامعة ورحلة اكتشاف عالم المعرفة :

1. جامعة برنستون : Princeton

كانت جامعة برنستون هي أول معلم يكتشفه في هذا العالم السحري، كان اكتشافها أثناء المؤتمر وتحديدا في يوم عطلة الأسبوع، يقول عنها إنها : « جامعة لا أستطيع إفراغ صورها في الألفاظ »[1]، وأنه لم يؤثر فيه شيء « في أميركة مقدار تأثير الجامعة وملعبها وحريتها، فهي عالم مستقل منفرد، فيه صورة الولايات المتحدة الأميركية كلها، فيها صورة الحرية على أوسع معانيها ولاسيما حرية الطلبة والطالبات، يجد الطالب في الجامعة كل ما يحتاج، يجد المكتبة وفيها كل مصادره، ويجد دار الطلبة وفيها غرفته وحمامه، فلا يمكن لعقل شرقي أن يتصور عظمة جامعة برنستون، لا من حيث المباني، ولا من حيث الترتيب ولامن حيث المكتبة، ولا من حيث سحر الطبيعة فيها، فالسحر كل السحر في طبيعتها : في شجرها، ومروجها وخضرتها وصفائها، إنها جامعة في غوطة مثل غوطة دمشق »[2]. وإنها لمدينة قائمة بنفسها، بل إن مدينة برنستون تستمد شهرتها بجامعتها، و يكفي أن ويلسون رئيس الولايات المتحدة الأميركية سنوات 1913 ـ 1921، كان رئيسها بين 1902 و1910، وكان محبوبا لدى الطلبة لا يستطيعون الصبر عنه إذا تأخر، وقد ترك قولا مأثورا عندما رشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة فقيل له : أنت رئيس جامعة، فكيف ترشح نفسك لرئاسة الجمهورية، فقال : رئاسة الجامعة أصعب من رئاسة الجمهورية[3]، وإذا كان ويلسون قد قال ذلك فإن مقولة جبري عنها لا تقل أهمية عن مقولة ويلسون : « في نفسي أمنية واحدة : لم أشته أن أكون أستاذ جامعة ولا رئيس جامعة ولكنني اشتهيت أن أكون طالبا بجامعة برنستون »[4].

(1) نفسه، ص 36.
(2) نفسه، ص 32.
(3) نفسه، ص 33.
(4) أرض السحر، ص 34.

2. جامعة هارفرد : Harvard

في هـذه الجامعـة اكتشـف أولى خصـائص الجامعـات في أميركـة، إن الحكومات والجماعات والأفراد تعجز عن بناء جامعـات بهـذا الشـكل، ولكـن أكثر الجامعات تبنى أقسام عظيمة منها بالهبـات والعطايـا، ففـي هـذه الجامعـة مكتبة بنتها أم مات ابنها على باخرة التيتانيك وعمره سبع وعشـرون سـنة، وقـد بنت هذه المكتبة تخليـدا لـذكرى ابنهـا Elkins Widener وضـعت فيهـا مكتبتـه الخاصة لتراه حيا بين رفقائه الطلاب.

3. جامعة مشيقان : Michigan

تلتقط فيها عدسته عبارة مكتوبة على مدخل بناء من أبنية هذه الجامعـة لها أكثر من دلالة، تقول هذه العبارة : « الـدين والأخـلاق والمعرفـة ضـرورية لوجود حكومة صالحة ولسعادة البشر، ويجب أن تشـجع المـدارس ووسـائل التربية أبد الآبديـن »[1].

لكنـه يلاحـظ التعـارض القـائم بـين هـذا الشـعار والواقـع مـن زاويـة الأخلاق، فالطلبة والطالبات يدخنون دون حرج، حتـى إن بعضـهم يـدخن في الأقسام، ولطلبتها الحق في اقتناء السيارة ويقدم معلومات إحصـائية عـن عـدد الطلبـة والأسـاتذة في هـذه الجامعـة فهـي تحتضـن 17000 طالـب وطالبـة و1200 أستاذ، وبعملية حسابية بسيطة نكتشـف أن معـدل التـأطير هـو أسـتاذ لكل 14 طالب، وأن الطلبة والطالبات يعملـون لتحصـيل أجـور يـدفعون بهـا رسوم الجامعة : « هذه عظمـة أميركـة. .. ولم أعظـم أحـدا في حيـاتي مقـدار تعظيمي لهؤلاء الطلاب الذين يخدمون على الأكل وفي الطرق والفنـادق »[2].

ويقدم معلومات عـن طريقـة التـدريس في هـذه الجامعـة، بحيـث يبـدأ الأستاذ فيوزع على الطلاب ورقة فيها أسماء المصادر، ثم يمسك بيده ورقة فيقرأ مرة ويشرح مرة ويسمح للطلاب بسؤال الأستاذ وهو يلقي درسه والطالب يسأل وهو جالس، وقد يكثر الطلاب من الأسئلة أثناء إلقـاء الـدرس، فيضـيع الـدرس

(1) نفسه، ص 68.
(2) نفسه، ص 68.

بالسؤال والجواب، ولكن إذا كانت الغاية أن يفهم الطالب فليفهم على هذه الطريقة، طريقة السؤال والجواب[1] وفي موضع آخر يشير إلى طريقة التعليم المتميزة في موضع حديثه عن الكلية العسكرية وهي طريقة تهدف إلى الإقناع بجدوى الشيء، من ذلك :

« شهدت في صف من الصفوف طالبا ينشئ محكمة وهو رئيسها، المحكمة تحاكم بنتا وصبيا، موضوع الدعوى : قراءة كتاب، فالرئيس يتهم البنت بقراءة كتاب لا فائدة فيه وعلى البنت أن تقنع الرئيس أن الكتاب مفيد، ولذلك لخصت له الكتاب، و الغاية حمل البنت على قراءة الكتاب وعلى تلخيصه حتى تأتي ببرهان على استفادتها منه[2].

وإذا كانت لكل جامعة خصائصها التي تميزها فإن زائرها يجد في كل جامعة شيئا جديدا قياسا إلى الجامعات الأخرى، فإن ما يميز هذه الجامعة نظافتها ولاسيما الفندق(إقامة الطلاب) الذي يتربع على مساحة داخل الجامعة والذي يمكن أن نكتشف من خلاله مجتمع الطلاب، وأعظم شيء في هذا المجتمع تلك العناية برياضة البدن، الشباب جبابرة في أجسامهم والفتيات رشيقات في حركاتهن، وفيها مدرسة خاصة لتدريس رياضة البدن، ومن عظمة هذه الجامعة ملعبها الذي يستوعب (100000) مائة ألف متفرج. وتستمد هذه الجامعة شهرتها في أميركا من الألعاب فهي أشهرها على الإطلاق في هذا المجال[3].

4. جامعة شيكاغو : Chicago

إنها تختلف عن غيرها من الجامعات من حيث الموقع، فهي تقع في ضاحية متصلة بالمدينة وكأنها تطرح سؤالا يحتاج إلى إجابة، يتمثل السؤال في :

ـ هل يجب أن تكون الجامعة داخل المدينة أم في الضاحية وبمعنى

(1) أرض السحر، ص 69.
(2) نفسه، ص 92.
(3) نفسه، ص 69.

آخر : هل يجب أن تكون متصلة بالحياة العامة بمشكلاتها كلها أم يجب أن تكون منفصلة عن هذه الحياة، في عزلة تامة، في أفق خاص، أفق البحث المجرد الذي لا يريد الاتصال بضوضاء الحياة العامة بسياستها، باحتجاجاتها، بمظاهراتها[1].

وهي مسألة جديرة بالعناية من قبل الباحثين، ولعل خصوصية هذه الجامعة تتمثل في هذا الموقع الذي يثير هذا السؤال الجوهري.

5 . جامعة كاليفورنيا : California

هي عبارة عن تسعة فروع موزعة في مدن مختلفة وهي من أكبر جامعات أميركا، هي الجامعة الثانية بعد جامعة نيويورك. تختلف عن غيرها من الجامعات، حدائقها عبارة عن مروج خضراء يقل فيها الشجر، غارقة في تل تحيط به جبال المدينة بورودها وقصورها المنثورة عليها، مكتبتها أندلسية الطبع بفسيفساء أعمدتها ومحرابها المتربع على صدر الجبل، فيها مزيج من الطراز الاسباني والطراز الانجليزي، بل إن العين لتقع في بعض مماشي هذه الجامعة على قناطر تشبه قناطر الجامع الأموي في دمشق. وسحن الطلاب فيها قريبة من سحن الاسبانيين، وتتميز، شأنها شأن باقي الجامعات الأخرى، بالحرية التي يتمتع بها الطلبة في داخلها : « طالبة قد استلقت على حضن طالب فهو يخاصرها ويعانقها على مرأى من إخوانه ولا يبالي أحدهم بذلك »[2].

6. جامعة اريزونة Arizona، تكسن Tucson :

أول ملاحظة في هذه الجامعة، كرم رجال العلم فيها، إنهم يلحون في الدعوة إلى الغداء أو العشاء في الجامعة. أخلاقهم ـ أهل الغرب ـ تختلف عن أخلاق أهل الشرق(نيويورك)، تبدو الجامعة كأنها بنت الصحراء، النخيل مغروس على أطرافها، حديثة البناء، عمرها لا يتعدى ثلاثا وستين سنة، معزولة عن المدينة بسروها وزيتونها ونخلها، يميزها متحف نسيج مختص

(1) أرض السحر، ص 76.
(2) نفسه، ص 101.

بلباس الهنود ولاسيما بلباس رقصهم، بأدوات صيدهم، بسلاحهم، بموسيقاهم، بحيوانات صحرائهم الذي أكثره الغزلان، لم يشهد الرحالة مثله من قبل، فيه بسط من نسيج الهنود سكان البلاد في الأصل وفيه تقع شجرة عملاقة عمرها (1700) ألف وسبعمائة سنة، محيطها ثمانية أمتار.

أما عن طريقة التدريس فيها فيلخصها بقوله : « سألوني في الجامعة أن أحضر مناقشة من مناقشات الطلاب، فدخلت صفا اجتمع فيه فئة من الطلاب للمناقشة في موضوع الأديان والأستاذ يرشدهم، فهم يضبطون الجلسة وفي الجلسة التالية يقرأ أحدهم خلاصة المناقشات الماضية وهذه طريقة من طرائق الأمريكان في جامعاتهم »[1].

7. جامعة نيومكسيكو Albuquerque :

تتميز هذه الجامعة من الناحية الجغرافية باتصالها بالمدينة وهي مبنية على طراز هندي اسباني، جدران مائلة، مكلسة بكلس من تحته آجر وأكثر صفوفها بارزة، تمتد أعمدتها إلى خارج الغرف، وللغرف كوى ولها شرف من خشب، فالطراز هندي محض، وهو الغالب على الدور والفنادق ولكنها أقل عظمة من جامعات الشرق والشمال، في حدائقها صور وسرو وصنوبر ومروج خضر، وليس فيها نخيل، وللأساتذة دور في أرض الجامعة، أما دار رئيسها فمنظرها حقير جدا قياسا إلى قصر رئيس جامعة برنستون مثلا[2].

جامعة يشعر الإنسان فيها أنه داخل مبنى من طراز هندي، فعلى الجدران صور هندية، وصور تمثل تقارب الحضارتين الهندية والمكسيكية، وسر هذه الصورصورة تمثل أميركيا يقف بين رجل هندي ورجل مكسيكي، قابضا بيده اليمنى على واحد وبيده اليسرى على الآخر، ويقرأ جبري هذه الصورة قراءة تأويلية، فكأن الصورة تقول لهما : « اذهبا، فالبلاد أصبحت

(1) أرض السحر، ص.
(2) نفسه، ص : 124.

بلادنا ولكن الصداقة باقية»[1] ومهما تكن هـذه الجامعـة بسـيطة في مظهرهـا، فإن لها سحرا ينعش القلب : حدائق وشجر، فالطالب في نزهة في كل حين.

ومـن خصـائص هـذه الجامعـة مـا كتـب علـى جـدران الصـفوف : لا تدخنوا، ذلك مـا لا يوجـد في جامعـات أخـرى. عـدد الطلبـة فيهـا (4000) أربعة آلاف، وأساتذتها من الجنسين.

شعار الجامعة حيوان يشبه الذئب.

8. جامعة ستانفورد Palo Alto :

ـ فخمة جدا، مدخلـها مـن أروع المـداخل، حـدائق وأشـجاروملاعب، تتميز ببناية فخمة للتمثيل.

ـ تتميز مكتبتها بثروتها في كل ما يتعلق بالشؤون الخارجيـة ومشـاكل الشيوعية، هي أول مكتبة في العالم من هذا النوع.

ـ فيها برج من أعجب الأبراج علـوه 285 قـدما فيـه الكتـب، في رأسـه نواقيس كبيرة، يعزفون بها في الأسبوع مرة، فتسمع منه موسيقى بلجيكية.

ـ شعارها شجرة من شجر كاليفورنية.

ـ بها مساكن للأساتيذ

ـ تتميزكذلك بأروقة بعض أبنيتها ففيها أروقـة طويلـة وقنـاطرلا مثيـل لها في الجامعات الأخرى.

ـ طرازها طـراز مكسـيكي لتـأثير أهـل المكسـيك في كاليفورنيـة مـن القديم.

ـ بها كنيسة بناها عمال إيطاليون جيء بهم من إيطاليا لهذا الغرض، إنـه الفن الإيطالي، داخلها مزين بفسيفساء لا مثيل لها.

ـ تقـاطيع مدخلـها وحيطانـه مـن أحسـن التقـاطيع والحيطـان، أمـام الكنيسة ساحة عظيمة، وطريق مستقيم تشقه ثلاث قناطر.

ـ فنها من أروع الفنون.

(1) نفسه، ص : 124.

ـ على المذبح صليب من بيزنطة عمره خمسمائة سنة، من بين هذه الصور صورة مؤثرة : إنها صورة السيد المسيح ومن تحته صورة البشرية القائمة أيضا، وفي هذه الصورة نفسها صورة ابن المتبرع بالجامعة. ويقرأ جبري هذه الصورة قراءة تأويلية على النحو التالي : إن المصورين حاولوا أن يصوروا على قدر الإمكان ولدا يشبه هذا الابن الذي مات في إيطالية.

ـ يعجز المرء عن وصف كل الصور المزينة لهذه الجامعة، بعضها يمثل أبطال حروب، بعضها ذو صبغة دينية، بعضها يمثل نساء على جمال، وهي صورة أيوب مع زوجته في الصحراء.

ـ وسط الجامعة ساحة عظيمة هي من أجمل الساحات، بل ليس لها مثيل في جامعات أخرى، فيها صهريج يتدفق الماء فيه وحوله مجتمع الطلاب ومرقدهم، يتمددون على بسط من العشب الأخضر.

ـ تتميز كذلك بتدريس الهندسة وبمكتبتها الوحيدة في العالم. ثم يلخص انطباعه عن هذه الجامعة بقوله : « لم أخرج من هذه الجامعة بعد جولاتي فيها إلا مع هدوء الطبيعة وهدوء السيارات الجائيات الذاهبات وهدوء أنغام الأرغن في الكنيسة، فكأني لا أزال أسمع هذه الأنغام التي تسحر القلوب بخشوعها ».

9. جامعة بركلي : Barclay [1]

هي فرع من جامعة كاليفورنية التي هي عبارة عن تسعة فروع موزعة في مدن مختلفة.

ـ حدائق منسقة يتخللها شجر ومروج خضر، وفيها زيادة على هذا كله غابات ومراج وأودية، تحيط بها الجبال الشجرة.

ـ ما أشد التشابه بين هدوء الطبيعة وبين هدوء الجامعة.

ـ مبانيها حديثة لا خصائص لها، ما خلا بناء أو أكثر بني على طراز يجمع بين الفن الاسباني والفن الأميركي الحديث، هذا التناقض له دلالة، بلا

(1) أرض السحر، ص 163 وما بعدها

شك فهو من الأشياء التي تلفت النظر.

ـ فيها ثلاثة عشر ألف طالب وخمس مائة، أساتذتها يزيدون عن الألف (أي ما يعادل 13 طالبا لكل أستاذ).

ـ بها مركز لدراسة لغات الشرق، وديانته وحضاراته(اللغات السامية : العربية والعبرية وغيرها)، اللغات المصرية والقبطية والفارسية والتركية ولغات بابل وغيرها.

ـ ليس فيها جوانب فنية تلفت النظر، ولكن فيها ما في أكثر الجامعات :

ـ مكتبتها مثلا أنشأت ذكرى لرجل اسمه : فرنكلنين دو.

ـ بها ملعب يسع خمسة وثمانين ألف مقعد.

ـ بها دار للطلاب الأجانب : غرف نوم، قاعات مطالعة، نوادي.

ولكن هذه الدار تختلف عن غيرها من الدور في باقي الجامعات من حيث أن الطلاب الأميركان يستطيعون إذا شاءوا أن يساكنوا الطلاب الأجانب فتشتد الصلة بينهم ويقوى التعارف ويقرب التبادل بالأفكار.

أما في الجامعات الأخرى فهي مقصورة على الأجانب وفي ذلك شيء من العزلة.

مشهورة بالتسامح : والأمثلة على ذلك، طلب للأساتذة أن يتعهدوا أن لا تكون لهم أفكار شيوعية فأبوا لأن ذلك يناقض حرية الفكر.

10. جامعة سياتل[1] : Ciatel

طراز مبانيها : بعضها إنكليزي محض وبعضها يجمع بين النمط الإنكليزي والنمط الهندي.

ـ متصلة بالمدينة غير منفصلة عنها مثل كثير من الجامعات، هي جامعة حكومية.

ـ تشعر فيها بهيبة الجامعة وهيبة العلم فهي تملأ العين هيبة وتهز

(1) أرض السحر، ص 169 وما بعدها.

الشعور.

ـ لا أثر فيها للمدخنين ولا للمدخنات ولا للمخاصرين لـزميلاتهم مـن الطلبة.

ـ على وجوههم أثر التحصيل والجد.

ـ لا جمال يفتن ولا محاسن تشغل.

ـ ليس فيها غابـات وصـراج وحـدائق كـبيرة ولكـن فيهـا علـى الأرض بسطا من العشب الأخضر يتخللها الشجر من مكان إلى مكان.

ـ بها 13500 طالب.

ـ اشتهرت بدراسة الغابات ودراسة لغات الشرق الأقصى وتاريخه وأدبه وهذا أمر طبيعي لأن ولاية «واشـنطن» كلـها غابـات؛ ولأن الشـرق الأقصـى قبالتها من وراء المحيط الهادي.

ـ مشهورة كذلك بالتمثيل.

فيها ثلاثة مسـارح : مسـرحان في داخلـها وآخـر في خارجهـا مصـمم على شكل باخرة على البحيرة يتعلم فيها الطلاب.

وهذا ما لا تجده في جامعة أخرى.

ـ بها متحف يشتمل علـى آثـار الهنـود الحمـر في ولايـة واشـنطن في القديم.

11. جامعة يوتا[1] UTAH :

تختلف هذه الجامعة عـن غيرهـا مـن الجامعـات مـن حيـث وضـعها وحدائقها ومداخلها، ففيها من صور الدهشة الشيء الكثير فلا تكاد تجـد فيهـا شيئا من الحدائق الغلب أو الحراج أو الشـجر، إنهـا تقـع علـى سـفوح جبـال جرد، تشعر فيها بأنها جرداء مثل هذه الجبال.

ـ مبانيها لا بأس بها ولكنها تبدو فقيرة.

(1) أرض السحر، ص 181.

إلا أنها تشعرك بالحياة الجامعية وبالنشاط الجامعي، ويصور الرحالة المدهش من النشاط الجامعي من خلال أربعة مشاهد : « مشهد الغناء ومشهد الاستعداد للعب الكرة ومشهد التمثيل ومشهد اللعب نفسه ».

أ. في الليل :

اجتمع في قاعة من قاعات الجامعة في الليل أساتذة اللغات الأجنبية وطلاب الفرنسية والإيطالية وطفقت كل جوقة من الطلاب والطالبات تغني على المسرح أغنية من الأغاني الفرنسية والإيطالية، ثم عرضت مشاهد السنيما وهي تمثل جزءا من البلاد التي يدرس الطلاب لغاتها مثل فرنسا وبلجيكا وإيطاليا.

كانت الجامعة تتهيأ للعبة الكرة، كانت الحياة ظاهرة آثارها على الجامعة في الليل أكثر من ظهورها في النهار؛ إنتشر الطلاب والطالبات في الأزقة الممتدة عليها أنديتهم المختلفة وبيوت جمعياتهم. كل طالب يخاصر طالبة وتخاصره، انه الاستعداد للمباراة بين جامعة يوتا وجامعة الكولورادو، نجد الطلاب ذاهبين جائين مقبلين مدبرين، فهم روح هذه الأزقة هم مرحها وسرورها (ترى أزقة الجامعة في هذه الليلة تزخر بحلق من الطلاب والطالبات كل طلب يرقص مع طالبة يؤلفون دائرة كل منهم قابض على خاصر الطالبة في الرقص ويدورون عدة دورات يعلق على ذلك بقوله : « هذا أكثر ما تصل إليه حرية الطلاب والطالبات في هذه الجامعة ».

ينظرون إلى التماثيل والتصاويرالتي عمل كل ناد على مقدمة بنائه. صور صنعها الطلاب والطالبات جمعوا فيها كل ما يملكونه من ذوق وإبداع وخيال، صنعوها قبل المهرجان بأيام استعدادا لهذه اللعبة.

صور تمثل الخصم في أضعف صورة والخصم شعاره كبش أبيض، وجامعة يوتا شعارها رجل هندي، على وجه كل ناد من الأندية صورة كبيرة من ورق وألوان مختلفة تمثل الرجل الهندي والكبش الأبيض على أشكال شتى : صورة تمثله وفي يده مطرقة يهشم بها رأس الكبش، وصورة تمثل الرجل الهندي أوقد النار وشوى الكبش وصورة تمثله وقد مدّ السفرة لأكل الكبش وصورة تمثله والكبش بين يديه يثغو من الألم، وهي أشكال تشعر

بضعف الخصم وبقوة جامعة يوتا.

لهذه الصور جائزة تعينها لجنة من الطلاب المحكمين، تجتمع اللجنة فتحكم لأشد الصور إبداعا وأسلمها ذوقا وأروعها فنا.

يجتمع الطلاب ليلة المباراة في قاعة ويحضر جمهور كبير من المتفرجين فيمثل الطلاب والطالبات مشاهد مختلفة على المسرح تعبر عن المعنى نفسه (غلبة جامعة «يوتا» لجامعة «كولورادو») وتمثل حياة أميركية في بعض نواحيها العامة وتكثر مشاهد الرقص على أنواعه كالرقص الهندي والرقص الأميركي والغناء. ثم تنتخب ملكة الجمال من بين الطالبات لتطوف يوم المباراة على المتفرجين وتحمس اللاعبين، ويخرج جبري من هذه المباراة بهذا الانطباع : «لا تخرج من هذه القاعة بعد ثلاث ساعات إلا وأنت تحس بميل الأمريكي إلى الضحك والمرح والنكتة وغير ذلك»[1].

ب. في النهار :

ترى شوارع المدينة مكتظة بطلاب الجامعة، وبعض المدارس، فرق من ضباط الجامعة الذين تعدهم للجيش بجوقة الموسيقى، بالبنات والصبيان، كل هذا تراه على صفوف متتابعة تجعل كل كلية شعارا فوق سيارة (على سيارة كبش أبيض بين يدي رجل هندي، على سيارة ثانية طلاب في ثياب الهنود عراة في يوم البرد، على أخرى بنات عاريات السيقان والأذرع والصدور يرقصن على السيارة ويتمرن على الحركات في الشوارع، طبول تدق ورجال الموسيقى يعزفون على حركات البنات، ثم نجد طائرة على سيارة ثم نجد فتيات وقد لبسن ثياب الهنود وهن أجمل فتيات الجامعة في فرق الموسيقى طالبات وطلاب لكل فرقة لباس خاص أحمر وأزرق أو أبيض. الطالبات لبسن لباس الجند أو القواد.

ـ رؤساء الأندية ونوابهم على سيارة ومشجعات اللعب على سيارة وهن من الطالبات الفاتنات ملكة الجمال والوصائف وهن على السيارة كذلك.

(1) أرض السحر، ص 18.

ـ حاكم المدينة ورئيس الجامعة على سيارة يطوفون شوارع المدينة.

في الملعب : موعد المباراة الساعة الثانية بعد الظهر.

بعد أن يصف الأجواء الطبيعية الحزينة في هذا المساء غيوم سود، هواء جاف، جبال من وراء الملعب ذاهبة في السماء على رؤوسها قطع من الثلج مما يجعلك تحس الطبيعة كلها سوداء يتساءل ما الذي يخفف من كئابتها هذا المساء؟ لا شئ سوى ذلك المشهد الساحر الذي يحرك الصخور :

ــ طالبات لبسن ثيابا حمرا وبيضا وتهيأن لتشجيع اللاعبين من جامعتهن ولنفخ الروح فيهم وقفن على جانب من جوانب الملعب يرقصن الرقصات المنسقة على مرأى من اللاعبين والمتفرجين، الابتسام ملء ثغورهن، الغنج غنج الطبع، غنج التصنع ملء أجسامهن.

ـ رجال الموسيقى يعزفون.

ـ الأطفال والصبيان والشباب والكهول والشيوخ والنساء قد ملئوا المقاعد.

ـ المناديل تخفق في الفضاء ترحيبا بالناجحين في اللعب.

ـ أصوات المتفرجين تشق أعناق السماء.

ــ رقص الطالبات المشجعات رقصة الهنود كلما نجح طلاب جامعتهن.

ــ دخول فرقة الموسيقى إلى الملعب عن منتصف المباراة وعدد أفرادها مائة وعشرون طالبا وطالبة وهم يعزفون ويقومون بحركات لا مثيل لها في خفة الأقدام ورشاقتها : مرة تكون الفرقة في شكل دائرة وحينا على هيئة خط منحن.

ـ حركات الطالبات الرشيقة أحلى من اللعبة ذاتها فترى الفرقة تارة يتصل أفرادها وتارة ينفصلون، وحينا تتدحرج طالبة على الأرض وحينا تتقلب في الهواء، وأنغام الموسيقى في هذا المشهد كله تماشى حركات الأقدام، والأجسام منسجمة منسقة تؤلف مرة على أرض الملعب أحرفا

تفصح عن رمز الجامعة ومرة تؤلف تاج ملكة الجمال وإنك كذلك إذ تمر ملكة الجمال التي انتخبت في الليل تحيط بها الوصائف على عجلة يجرها حصان، حركاته متزنة مثل حركات اللاعبات يجري وراء الملكة فارس حركات حصانه في مثل هذا الاتزان فتطوف الملكة حول الملعب وتحيي جماهير المتفرجين ويحيونها تطرق مرة ومرتين وثلاث.

ـ طائرة الجامعة في السماء تشجع اللاعبين وتحييهم عندما تبلغ المباراة منتصفها الأخير.

ـ أصوات طالبات المدارس وطلابها تخرق الجو فتموج فيه أصداء أهازيجهم المشجعة والمحمسة.

« ثم يختم هذا كله بنشيد الجامعة، وهو نشيد مقو منشط لتخرج من المباراة بهذا الانطباع : « القوة ماثلة في كل شيء : في طبيعة الجبال، وفي اللعب، وفي الحركات وفي الرقصات وفي نغمات الموسيقى وفي النشيد نفسه »[1].

وتحس أن أمريكا كلها في هذا اليوم، هذه تربيتها وأخلاقها وتقاليدها هذه صورتها في الجامعة، في ملاعبها وقد تتوقف سمعة الجامعة في بعض الأحيان على نجاحها في اللعب أو على إخفاقها، أما النجاح فيجلب لها الطلاب والطالبات وأما الإخفاق فيدفعهم عنها، ولهذا نجد الجامعة تعني باللاعبين العناية كلها، فتنتخبهم من أقوى الطلاب أجساما وتهتم بغذائهم، فيتدللون عليها وقد تراعيهم في الإمتحانات »[2].

12. جامعة كولومبيا في نيويورك :

هي آخر جامعة يزورها الرحالة وقد سئم من زيارة الجامعات على ما يقول ولكنه مع هذا السأم والملل يقدم لنا صورة عنها، إنها قطعة من المدينة مقامها بين الشوارع والسيارات، مرتفعة عنها على بعض خطى من نهر « الهدس » تقابلها عن شط هذا النهر مدينة « نيوجرسي الضاحكة ».

(1) أرض السحر، ص 186.
(2) أرض السحر، ص 168.

وهي على شهرتها العظيمة لا تحسك بشيء من الحياة فلا حـدائق ولا غابات ولا شجر علـى أرضـها كأنهـا معمـل مـن معامـل هـذه المدينـة، إنهـا مناسبة لهذه المدينة العظيمة، إن مثل هذه الجامعة كمثل نيويورك نفسـها فهـي قطعة من ظلمتها وكآبتها وضجتها.

أما مـا يميزهـا هـي تلـك الكنيسـة عظيمـة، وأعظـم شـيء فيهـا تلـك الأجراس في البرج التي يصعب تصور ضخامتها، من هذا البرج تتراءى عظمـة هذه المدينة.

وينتهي إلى الخلاصة التالية : ما أشد التناسب بين جامعـة «كولومبيـا» وجامعة «نيويورك» إنك لا تخرج منهـا إلا ونصـب عينيـك صـورة الـرئيس «إيزنهاور» في لباسه الجامعي في حفل توزيع الإجـازات، فـتحس أن رئاسـة الجامعات في أمريكا مقدمة لرئاسة الولايات المتحدة.

ويختم هذا الانطباع بهذا السـؤال الحمـال لأكثـر مـن وجـه : ألم يكـن الرئيس «ولسن» قبل «إيزنهاور» رئيسا لجامعة «برنستن» ؟ [1].

من خلال ما تقدم يمكن القول :

إن المتأمل في الصـور الـتي قـدمها جـبري عـن الجامعـات الأمريكيـة يخرج بالخلاصة التالية :

1 ـ هناك أشياء مشتركة بين الجامعـات ولكـن هنـاك في كـل جامعـة خصائص ومميزات لا نجدها في جامعة أخرى.

2 ـ الهبة لها الفضل الأعظم على جامعـات أميركـة، فـأكثر أبنيتهـا مـن مال الأغنياء، ولولا ذلك لصعب إنشاء الجامعات من هذه الطرز.

3 ـ أبرز شيء في جامعـات أميركـة الملاعـب الـتي تصـل طاقتهـا في بعض الجامعات إلى مائة ألف متفرج، و مـن ثـم تعـد الرياضـة بمثابـة روح الجامعات في أميركة، بل إن بعضها يتوقف مصيرها بمصير الرياضة فيها.

4 ـ الحرية، إن الجامعة الأميركية هي ينبوع الحرية فـلا جامعـة بـدون

(1) نفسه، ص 211.

حرية، إنها صورة للحرية على أوسع معانيها ولا سيما حرية الطلاب والطالبات.

5 ـ إن الجامعة الأمريكية من حيث موقعها نجدها إما متصلة بالمدينة، وبالتالي فهي جزء منها، وإما منفصلة عنها لها مساحتها خارج المدينة، والأمر هنا ليس اعتباطيا وأنما يحمل بعدا فلسفيا.

6 ـ ترتبط الجامعة بمحيطها الاقتصادي والاجتماعي والطبيعي ارتباطا وثيقا فهي تعنى بالأمور التي تحيط بها، إنها قريبة من الحياة، متصلة بها.

7 ـ ضعف رواتب الأساتذة الجامعيين (400 إلى 500 دولار، فالميسورون منهم هم الذين يمارسون أعمالا إضافية، أساتذة العلوم كالمهندسين وأساتذة الكهرباء والكيمياء، أو ما شابه ذلك. أما أساتذة الآداب والتاريخ والجغرافيا والفلسفة الذين يقتصرون على مرتباتهم الشهرية فانه يصعب عليهم مواجهة أعباء الحياة الأميركية.

8 ـ إذا كانت الجامعة صورة الأمة فجامعات أميركة انطق صور للأميركان، فهي عالم مستقل منفرد.

9 ـ أكثر الزواج في أميركة يطبخ في الجامعات حيث تنتهي المخالطة في أكثر الأحوال بالزواج، حتى أصبح الزواج في الجامعة من سن العشرين حتى الثالثة والعشرين.

ب ـ اكتشاف عالم الطبيعة :

لقد شغلت الطبيعة حيزا واسعا من اهتمام الرحالة جبري وعدت الهدف الثاني لرحلته فقال عنها : « إن الذين يزورون أميركة ثم يرجعون إلى أوطانهم يحدثون أهلهم وأصحابهم عن كثير من وجوهها (. ..) أما نحن معاشر الأدباء، فقد يكون الحديث عن الطبيعة غالبا »[1].

بدأ اهتمام الرحالة بمناظر الطبيعة مع بداية انطلاق الرحلة من مطار دمشق حين تصور أن البساتين الصغيرة المحيطة بنهر بردى توضح للطائرة

(1) أرض السحر، ص 73.

مسارها واستمر يلتقط الصور حين حلقت الطائرة فوق البحر المتوسط، فأخذ يملأ عينيه من مناظر الأرض : الغيوم التي ملأت السماء، قطع السحاب المبعثرة فيها، جزيرتا قبرص ورودس اللتان تبدوان وكأنهما تتمة لسلسة جبال لبنان. وعند الاقتراب من روما حيث لاحظ اختلاف المناظر فرأى فيها مدخلا فنانا بطبيعته وبساتينه، ولم يعد يهتم بالطبيعة حتى كانت رحلته في القطار من نيويورك إلى برنستون، وقد ورد ذلك في قوله : « لا يهمني شيء في القطار مقدار ما تهمني الفرجة، فأكاد أغرق في مشاهد الطبيعة ولا أحول بصري عنها »[1].

ولكنه لم يسجل شيئا عن هذه المناظر سوى إنه لاحظ على الطريق شجرا كثيرا وسهولا كثيرة.

وفي الفندق كذلك، تلفت انتباهه تلك الطبيعة الخلابة : « أنما الشيء الفاتن في هذا الفندق مروجه الخضر وبحيراته المصنوعة »[2].

وعندما يطوف بالجامعة التي تحتضن المؤتمر في يوم الراحة (الأحد) يرى أن السحر كل السحر في هذه الجامعة يتمثل في طبيعتها فهي في غوطة مثل غوطة دمشق[3].

لكن بداية الاهتمام الفعلي بعالم الطبيعة جاء بعد انتهاء أشغال المؤتمر، و هنا، يتفطن إلى أنه قصر كثيرا عندما لم يسجل كل الجزيئات التي شدت انتباهه في هذه الطبيعة ظنا منه أنها ستبقى عالقة بذهنه بتفصيلاتها، ولما عاد إلى دفتره، وجد جملا متقطعة ليدرك الخطأ الذي يقع فيه كاتب الرحلة، ولكنه لم يتفطن إلى ذلك إلا عندما وصل إلى « سان فرانسيسكو »، فحاول أن يستفيد مما مر به من موقف إلى موقف فيسترسل في الوصف وكأنه يعيد عدسته إلى الوراء : عوض السلاسل من الجبال، نجد سلاسل من شجر، أنهر كأنها بحيرات، بحر من جهة والغابات من جهة، جسور معقودة على البحار، فمن رؤية الغابات إلى رؤية البحر في يوم صفا

(1) نفسه، ص 17.
(2) نفسه، ص 18.
(3) نفسه، ص 32.

جوه وأشرقت شمسه كأنك في الشرق، دور صغيرة مبعثرة بين الأشجار، ومعامل إلى جنب الغابات[1].

وفي طريقه من واشنطن إلى يوستن يشير إلى أن المشاهد هنا تشبه المشاهد الواقعة على المحيط الأطلنطي، فهي غابات مرة يكثر فيها الشجر ومرة يقل[2].

على أن الإحساس بضرورة التعرف إلى مشاهد الطبيعة في أمريكا وضرورة الاستئناس بها أكثر من ذي قبل، كان قد راوده وهو جالس على مقعده في تل من تلال بوستن المشرف على المحيط الأطلنطي، وأمامه تلك اللوحة الرائعة : هذا البحر العظيم الذي تغرق فيه متاعب الإنسان وأفكاره السود وهو يتمتع منه، و تلك الضاحية الزاهية بشجرها وقصورها : « من هذا اليوم طفقت أتعرف إلى مشاهد الطبيعة في أميركة وأستأنس بها »[3].

لقد أيقظت فيه هذه اللوحة الشعور بضرورة الاندماج الكلي في عالم الطبيعة فقرر أن يتخلص من الإنسان الباحث الذي سيطر عليه مدة من الزمن ولا سيما مدة المؤتمر ويسكن الإنسان الشاعر الذي يفنى في الطبيعة.

فكانت شلالات « نياكرا » الحلم الذي راوده من أيام الدراسة بعد أن حببها إليه « شاتوبريان « في وصفه لها، ولكنه لم يخطر بباله أبدا أنه سيأتي يوم يزور فيه أميركة ويتنزه على هدير شلالات « نياكرا »، فيصير الحلم حقيقة.

في طريقه إلى هذه الشلالات من بُفلوBUFFALO إلى « كليفلند » إلى « ديترويت » إلى « شيكاغو »، بحيرات عظيمة جعلت فتنة هذا الجزء من أمريكا. بحيرات اجتمعت في هذه البقعة، ومن بعد شيكاغو تبدأ صحراوات مثل صحراوات أفريقيا.

إن الانطباع الأولي الذي تركته في نفسه هذه المناظر قبل أن يصل إلى

(1) أرض السحر، ص 42.
(2) نفسه، ص 53.
(3) نفسه، ص 56.

الشـلالات يعـبر عنـه بقولـه : « أميركـة جمعـت مشـاهد الطبيعـة في العـالم كله »[1].

« إن بحـيرات واشـنطن « الـتي أعجبـت بهـا صـغرت أمـام بحـيرات « بفلو »(.. .) وإن بحيرات « بفلو » صارت في عيني كل شـيء أمـام شـلالات « ناكرا »[2].

« الطبيعة خلقت هـذه المشـاهد علـى الطريـق (. ..) حتـى لا تفـاجئ الشلالات عين إنسان مفاجأة فيغشى عليه من هولها »[3].

ويخلص إلى وصف هذه الشلالات على النحو التالي :

« يتدفق الماء لأول وهلة على شكل نهر، ثم يتسع فيكون علـى صـورة بحيرة، ثم ينبسط فيكون بحرا والغياض تحيط به وأروع شيء في هذا المشـهد إنما هو هدير الماء الراعب، هذه الموسيقى الساحرة (. ..) وقبـل أن تجتمـع الشلالات وتنصب هذا الانصباب المخيف يضيع المـاء قلـيلا في غيـاض مـن حور أو شجر آخر، فينساب بين هذه الغياض من هنا ومن هنا (. ..)

والشجر بين هذا الماء وكأنه جزر مشتتة، ثم يجتمع الماء بعضـه علـى بعض فيتدفق على صورة شلالات، وليست الشلالات عالية جدا (. ..) ولكـن روعتها في إنصبابها، فهي تؤلف نصف دائرة (. ..) وتنصـب الشـلالات كلـها في واد، فيجري منهـا نهـر في هـذا الـوادي »[4]. ثـم يتسـائل في دهشـة : مـاذا يعتري الإنسان في مثل هذا المشهد؟

فيجيب عن الانعكاسات النفسية التي تحدث نتيجة التأمل في مثل هـذه المنـاظر، بصـورة خاصـة. فيقـول : « لقـد ملـك المـاء علـي شـعوري وتفكيري »[5].

ومع ذلك، فهو يتذكر الشام في هذه اللحظة يستحضـر منتزهـات دمـر

(1) أرض السحر، ص 58.
(2) نفسه، ص 58.
(3) نفسه، ص 58.
(4) نفسه، ص 59.
(5) نفسه، ص 59.

والشاذوران في دمشق. و مع ما في الطبيعة في أميركة من جمال يلب الألباب، ألا أنها تثير فيه مشاعر الرهبة والخوف ويتجلى هذا في عبارات خص بها هذا الجانب كقوله :

« وقفت أتأمل وأنظر في رهبة الطبيعة وجبروتها فكأني خرجت من نفسي وكأني أصبحت صنما لا أنطق ولا أتحرك »[1].

ويدفعه التأمل أكثر في منظر الماء إلى نوع من التبلد في الشعور : « أظن أن من المستحيل إفراغ شعوري وأنا أنظر إلى الماء في الألفاظ »[2].

وينتهي به المطاف إلى نوع من الاستسلام لرهبة الماء وإجلاله في قوله : « حسبي أن أملأ أذني من هدير هذا الماء وعيني من رهبته »[3].

و : « حسبي أن أنقاد إلى عظمته وأن أستسلم إلى جلالته »[4].

إن البحث عن المتشابه بين طبيعة بلد الرحالة والمختلف عنها هو الخيط الذي يربط معظم اللوحات التي التقطها من الطبيعة. وكثيرا ما تحضر دمشق عند وصف الطبيعة :

كقوله : « مررنا بمناظر تشبه مناظر الغوطة في دمشق »[5].

أو كقوله : « تظهر سهول مديدة لا نهاية لها، فكأن الإنسان يسير بين دمشق وبغداد وكأنه يمر بسهول حوران في سورية، ولكن على قياس أكبر »[6].

ويعقد جبري مقارنة بين قرى الشام والقرى الأميركية الغارقة في بطون الأودية : « ما أجمل هذه القرى الغارقة في بطون الأودية وهي تحيط بها جبال، فكأن الإنسان في جرد الزبداني في الشام، كأنه في سرغايا »[7].

(1) أرض السحر، ص 59.
(2) نفسه، ص 59.
(3) نفسه، ص 59.
(4) نفسه، ص 59.
(5) نفسه، ص 72.
(6) نفسه، ص 77.
(7) نفسه، ص 78.

كما يجد مثيلا لنهـر بـردى : « في الأوديـة علـى جانـب الطريـق العـام وخط الحديد نهر لا يزيد على نهر بردى في دمشق »[1].

كما يحضر لبنان في هـذه المنـاظر المتباينـة : « ظهـر المـاء وظهـرت سلسلة جبـال شـجيرة، فكـأني في لبنـان في جهـات ظهـور الشـوير »[2]. وفي موضع آخر : « بساتين فيها شجر مثمر وجبال تشبه جبال لبنان »[3].

ويشـبه سـهول كاليفورنيـة المزروعـة بسـهول تمتـد مـن حمـص إلى حلـب : « لقـد شـرعنا في دخـول « كاليفورنيـة »(. ..) ثـم تقـع العـين علـى السهول المديدة وهي سهول « كاليفورنية » فتظهر زراعة الأرض، فكأن الإنسـان يذهب من حمص إلى حلب »[4].

ولا تختلـف الجبـال في أميركـة عـن بعـض الجبـال في الشـام : « ثـم تجول في أودية هذه الجبال فيحيق بك الشـجر مـن كـل جانـب، فكأنـك في جبال العلويين في سورية حينا، وكأنك في جبالنا الجرد حينا آخر »[5].

ويتحسر جبري بعد كل هذه المقاربات في المناظر الطبيعيـة، لأن هـذا التشـــابه في التضـــاريس يقابلـــه اخـــتلاف في خدمـــة الأرض : « يقولـــون إن« كاليفورنية » مثـل بلادنـا، هـذا صـحيح (. ..) ولكـن أيـن في بلادنـا هـذه السهول الواسعة المزروعة (. ..) أين هذه البساتين، أين هـذه المتـافح الـتي لا يزيد فيها شجرة تفاح على مقدار شجرة »[6]. ويتكرر حضـور لبنـان وسـوريا في مواضع عديدة في ثنايا وصفه تضاريس أمريكية[7] ونخرج معه مـن هـذه الصور بالانطباع التالي :

مشاهد الطبيعة في العالم كلـه جمعـت في أميركـة. فمـن الغابـات إلى الحـــراج، إلى الســـهول، إلى المرتفعـــات إلى الســـواقي والأنهـــار والـــبحيرات والشلالات والبحار، إلى الصحراء المترامية الأطـراف، يجعـل أميركـا تختـزل

(1) نفسه، ص 79.
(2) أرض السحر، ص 79.
(3) نفسه، ص 84.
(4) نفسه، ص 79.
(5) نفسه، ص 83.
(6) نفسه، ص 84.
(7) ينظر على سبيل المثال : ص 99، 122، 177.

هذا الكون الطبيعي.

ج- اكتشاف عالم المدينة :

ارتبط الحديث عن المدينة عند جبري بالحديث عن الطبيعة، فكلما توجه إلى مدينة من المدن الأمريكية التقط صورا للطبيعة وكثيرا ما تمتزج اللوحتان في لوحة فنية واحدة، ومن أهم المدن التي توقف عندها قبل أن يصل إلى نيويورك مدينة رومة ومدينة باريس حيث لاحظ في الأولى أن كل شيء فيها قد تغير، فقد سبق أن زارها في سنة 1934، وزارها هذه المرة (1953). وسجل هذا التغير من خلال هذه اللقطة : « بأيام موسوليني، كنت لا أرى امرأة جالسة في مقهى، كنت أرى الرجال في المقاهي إذا مرت امرأة على الرصيف أكلوها بعيونهم، أما الآن، فان المقاهي في هذا الشارع (. ..) قد ملئت مداخلها بالرجال والنساء، لقد ظهر اثر النعيم على رومة، ظهر اثر الدولار، كثر العمران وغلت الأسعار »[1].

أما الثانية فلم يلاحظ فيها أي تغير أو تحول فقد ظلت المدينة هي : لهو ومرح وفتنة، ويبدو أن انشغاله بمدينة نيويورك التي يريد الوصول إليها بأقصى سرعة صرفه عن الاهتمام بهذه المدينة.

أما بالنسبة إلى المدن الأمريكية، فان نيويورك التي هي أول مدينة وطئت أقدامه أرضها، فان أول انطباع سجله عن هذه المدينة هو كون كل ما فيها غريب : « ما هذه الرحلة إلى بلاد كل شيء فيها غريب، حتى أمر الأكل »[2].

ولكنه لم يتفطن مع ذلك إلى شيء من غرائب وعجائب هذه المدينة كونه كان مشتت الفكر والبال، فاكتفى بهذا الانطباع، ولكنه في جيئته الثانية إليها بعد انتهاء المؤتمر، شغلت ذهنه كله فوقف : « على جبروتها وعظمتها وتناقضها »[3]. فكانت هذه اللقطات :

(1) أرض السحر، ص 12.
(2) نفسه، ص 16.
(3) نفسه، ص 17.

1 ـ تحطـم الصـورة الذهنيـة العجائبيـة الـتي كـان يحملـها عـن هـذه المدينة❖.

2 ـ صفتها : « مدينة جبارة. فهي نظيفة قـذرة، موحشـة مؤنسـة، عظيمـة صغيرة، هادئـة صـاخبة، سـاكنة متحركـة »[1] وهـي باختصـار مدينـة مخيفـة متناقضة في كل مظهر من مظاهرها جمعت كل أنواع الاختلاف.

اللقطة الأولى التي صورتها عدسته في هـذه المدينـة حـي « بـروكلين » الذي يقيم به أبناء العرب من سورية ولبنان، تظهـر عليـه كآبـة المشـرق، كأنـه ليس حيا من أحياء نيويورك ولكن مع ذلك، نجد بعض أفراد الجاليـة العربيـة فيه قد حققـوا نجاحـا بـاهرا في التجـارة فصـاروا مصـدرين لبضـائعهم. وفي المقابل، تلتقط عدسته أحد أفراد هذه الجاليـة الـذي اخـذ معـه حقيبـة عـادات الشرق السيئة، وبأسـلوب هزلـي تهكمـي يرسـم لنـا هـذا الموقـف الـدرامي : « سألته عن مدة إقامته بنيويورك، قال : أنا فيها من سـت وأربعـين سـنة، قلـت له : إلى أين أنت ذاهب الآن؟قال : إلى القهوة، فعلمـت أن هـذا الرجـل أضـاع وقته في أميركة ولم يجمـع شـيئا مـن المـال، فـان الجلـوس في المقـاهي في أمريكة معناه إضـاعة الوقـت(. ..) قلـت لـه : كيـف شـغلك؟ فقـال : يسـترها ربك، و هل يأخذ الإنسان معه شيئا إلى الآخرة »[2].

أما اللقطة (اللوحة) الثانية :

فتتمثل في الإعلانات التي تملآ المدينة، و هي آخر الصور الـتي ينقلـها معه، يسجل انطباعه عن هذه الإعلانات فيقـول : « و هـل أبـالغ في قـولي، إذا قلت إن ما ينفقونه على أنوار الإعلانات في شـارع « بـرودوي » يكـاد يضـيء بلدة صغيرة، شلالات من الكهرباء وهي تعلن بنوع من السجائر أو بنـوع مـن الثياب أو بـأنواع ثانيـة لا يحصـيها إحصـاء. علـى أبـواب دور السـينما تجـد أسمـاء الروايـات زاهيـة بمختلـف الألـوان، ترفـع راسـك إلى السـماء فتجـد الطائرات ترسم خطوطا في هذه السماء إذا جمع بعضـها إلى بعـض كـان في

❖ سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن وهم الكاتب.
(1) أرض السحر، ص 203.
(2) نفسه، ص 213.

جمعها اسم شركة أو محل تجاري أو بضاعة أو غير ذلك. وإذا كنت تجد صورة أمريكة في إعلاناتها فان نيويورك تجسد ذلك على وجه خاص.

تعد هذه الإعلانات مصيدة للزبائن، فلا يكاد يفلت زبون من قبضتها لان أصحابها يطبقون في هذا السبيل علم النفس الذي يساعدهم على الربح، ولأن هم أميركة كلها الإنتاج والبيع والربح، فهي تجد عظمتها في هذا الإنتاج وهذا البيع وهذا الربح، ومدينة نيويورك أنموذج حي لهذه الروح[1].

وإذا كانت مدينة «نيويورك» هي أول المدن الأمريكية التي وطئت قدماه أرضها إلا انه لم يصفها إلا عندما كان يتأهب لمغادرة أميركة، وقد وصف قبلها مجموعة من المدن وكشف عن خصائصها ومميزاتها ومنها :

غرائب مدينة «واشنطن»، وغنى مكتبة الكونغرس فيها ودار متحفها، والبيت الأبيض. ليسجل في الأخير تعلقه العاطفي بهذه المدينة التي تذكره بعض شوارعها بشوارع «باريس». ليعرج بعدها على مدينة «بوسطن» والتي من ابرز ما سجلته عدسته فيها ذلك السائق العربي الذي سأله عن مطعم يروم الذهاب إليه فقال له : أنا آخذك بالسيارة إليه على الرغم من أن المطعم كان على بعد خطوات فقط ليعلق على هذه اللقطة : «نحن لا نتغير سواء أهاجرنا أم أقمنا»[2]. لينتقل بعد هذه المدينة إلى مدينة بفلو ليقول عنها إنها مدينة نظيفة وديعة، هادئة ثم مدينة «كليفلند» التي استمدت شهرتها من مكتبتها، و«ديترويت» مدينة المعامل والمصانع والحديد والصلب وغيرها من المدن «كشيكاغو»، و«سان فرانسيسكو»، و«مونتري» و«لوس أنجلس»، و«هوليود»، و«تكسن» و«البازو» و«الباكركي» و«سانتافي». حيث سجل انطباعاته عن كل واحدة منها، و هذه الانطباعات لا تخرج عن تلك المشاعر التي سجلها عن الجامعة فلكل مدينة من مدن الولايات المتحدة خصائصها ومميزاتها حتى انك : «تدخل مدينة فترى شارعا عظيما، و مباني ذاهبة في السماء، ثم تدخل مدينة ثانية فترى شارعا أعظم ومباني

(1) أرض السحر، ص 212 ـ 215.
(2) نفسه، ص 54.

أعلى، ولكن الذي يميز هذه المدن سحرها »[1].

وأهم ما يميز الناس فيها تقديسهم العمل، فالعمل كلمة مقدسة في نظر الأمريكي مثل كلمة البيت في نظر الانجليزي، وأن المرأة فيها تتمتع بالحرية إلى ابعد الحدود، وهذه خلاصة انطباعاته عن المدينة في هذا العالم العجيب الذي يسمى أميركا.

(1) نفسه، ص 82.